

كتبة الرئيس حسني الحسيني

أيتها السيدات واللadies

إنّه لمن دواعي سروري أن أشهد صدور كتاب "جمهورية فؤاد شهاب" للكاتب والصحافي نقولا ناصيف، وفي هذا التوفيق؛ أي بمناسبة ذكرى مرور ربع قرن على رحيل الرئيس اللواء الأمير فؤاد عبد الله حسن شهاب، وغداة ذكرى الاستقلال، حيث تتدخل الأمور وتتشعب لتصب في هدف واحد، ألا وهو بقاء لبنان، لكل اللبنانيين، والالتزام بحقوق الإنسان، الذي هو معنى لبنان، وهو موضوع الكتاب.

ومن البديهي القول أن مقدمة الكتاب، بقلم الوزير فؤاد بطرس، أهمية بالغة، لمكانته وخبرته العالية، ولعلاقته المميزة بالرئيس الراحل، وبالعديد من الواقائع التاريخية التي حفل بها العهد الشهابي. وقد تضمنت هذه المقدمة، كما المقابلات التي أجراها الكاتب معه، في العديد من وقائع الكتاب، وقائع وحقائق تستحق أن توصف بأنّها تاريخية.

إذ يقول أستاذ التاريخ البريطاني إدوارد كار:

"إن الحقائق في الواقع ليست بناتاً مثل السمك المطروح على بلاطة باع السمك. بل إنّها كالسمك الذي يسبح في محيطٍ واسع، والذي يكون صعب المنال أحياناً. وما يمسك به المؤرخ سوف يعتمد، جزئياً على الحظ، ولكن بصورة رئيسية، على الجهة التي يختارها للتقصيد، وكذلك على نوع العدة التي يختار استخدامها".

وهنا أستطيع أن أقول بأنّ نقولا ناصيف قد سبح في أعماق محيط فؤاد شهاب، وقد كان محظوظاً باختيار الجانب الثري بالأسماك من هذا المحيط، جانب فؤاد بطرس وأحمد الحاج وشفيق محرّم وجان ناصيف وغيرهم، ومن فيهم الذين عارضوا العهد الشهابي في جانب منه، وساندوه في جوانب أخرى، كغسان تويني وريمون إده وألبير مخير ومنح الصلح وغيرهم وغيرهم.

سبح نقولا ناصيف وكان صيده الواقع والحقائق التي جمعها في هذا الكتاب
صيداً ثميناً.

ويقول إدوارد كار أيضاً:

"إن التاريخ يتالف بصورة أساسية من رؤية الماضي من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشاكله. والعمل الأساسي للمؤرخ ليس التدوين وإنما التقويم، ذلك أنه إذا لم يجر تقويمه فكيف له أن يعرف قيمة الأشياء التي تستحق التدوين." !!؟

رأى نقولا ناصيف ماضي وقائم وحقائق "جمهورية فؤاد شهاب" بعيون الحاضر، ما مكّنه من تقويم هذه الواقع والحقائق تقويمًا موضوعياً، فاستحق التدوين.

أيها السيدات والسادة،

إذا كان الكاتب لم يبرز مكمن الخلاف الذي حكم حياة اللبنانيين الوطنية منذ إنشاء الكيان اللبناني عام ١٩٢٠، والذي حال دون كتابة ميثاقنا الوطني واستكماله وإدماجه في الدستور اللبناني، كما حال دون إيضاح الهوية الوطنية وانتماء لبنان العربي، ودون تحديد نظام الحكم بحيث شابه اللبس وتراكمت الخلافات المستجدة حوله، فضلاً عن حيلولته دون وضع تربية وطنية واحدة لجميع اللبنانيين ...

هذا الخلاف حول القضايا الأساسية هو بالتأكيد الذي جعل الرئيس فؤاد شهاب يقدم الإصلاحات الإدارية والاجتماعية والإنسانية على الإصلاحات السياسية، رغم إجهاره أمام معاونيه بعدم صوابية هذا الترتيب لأولويات مسيرته الإصلاحية والإنقاذية ...

إذ يقول نقولا ناصيف: "في وقتٍ لاحقٍ أسرَّ فؤاد شهاب مراراً أمام معاونيه، أنه أخفق في تحقيق إصلاح سياسي، من دون أن يكتم أسفه..."
وممّا قاله الرئيس شهاب: "الإصلاح الإداري ضروري ولكنه غير كافٍ،
وينبغي اقتراحه بإصلاح سياسي"، وإذا لم يُجرِ إصلاح سياسي، سينفجر البلد".

إلا أنه وكما يقول نقولا ناصيف: "قد أضحت عبارة بناء الدولة التي تبنّتها الشهابية ملزمة لمسار عهد الرئيس شهاب"، الذي "نادى في بداية سني ولاية رئاسته بإصلاح إداري يمهد للخوض في إصلاح سياسي". غير أنَّ هذا الإصلاح سيكون الأكثر اصطداماً بالعقبات والصعوبات لصلته الوثيقة بالطبقة السياسية التقليدية التي تقبض على إدارة الحكم".

وممَّا قاله نقولا ناصيف: "ومن دون أن يكون في صدد إزالة الالتباس التاريقي حول النزاع اللبناني على مفهوم الوطن، وجد فؤاد شهاب أنَّ الوقت ربما يكون قد حان لإرساء مقومات الدولة ما دامت ليست في صلب الخلاف المزمن على هوية الوطن". إذ، بحسب الرئيس شهاب، "كان ثمة إجماع وطني على أنَّ الاستقلال قد حصل، فلم يقل الرئيس شهاب إنَّه اسم بلا كيان، بل قال: "إنَّ اللبنانيين" انتزعوه بالنضال الطويل الصلب العنيف، بالجلد والصبر ونكران الذات، وبالدموع والدماء والتضحيات الغولي والاستشهاد"، غير أنَّه "يفقد كثيراً من نوره ومجد وقدسيته إنَّ فهمناه اسمًا ورابة، ورضيناه غاية في ذاته ونهاية، وإن لم نجعل منه منطلقاً وقدوة، ونشاطاً حيوياً متجدداً دائمًا لخير الإنسان".

"معجزة الاستقلال سنة ١٩٤٣" التي كادت تقوِّضها أحداث عام ١٩٥٨ أراد الرئيس شهاب أن يردها بـ"معجزة الإنقاذ سنة ١٩٥٨"، كي يحضر اللبنانيين على أنَّ مصيرهم إنَّما هو من صنع أيديهم: "فنحن بأيدينا عرَّضنا استقلالنا حتى كاد يضيع. ونحن بأيدينا أنقذناه"، كما قال الرئيس شهاب. ومتوجهاً إلى اللبنانيين قال لهم: "بمقدار ما تشعرون بأنَّ حاجاتكم الأساسية المفروض في الدولة تأمِّنها تسير إليكم حقوق لا كهبات، وتصل إليكم مجردةً من المنة، لا يميِّزها تمييز ولا يشوبها تفريق، يحق لكم أنْ تطمئنوا إلى أنَّ طلائع الجهد المبذول لن تمنعها عقبة عن التقدُّم والتَّوسيع حتى تعم الوطن في مختلف مناطقه، والشعب في مختلف فئاته".

وتتأثراً بهذا الموقف، لخص الأب لوبيريه الفكرة الرئيسية التي طغت على فؤاد شهاب، وهي "أن يجعل اللبنانيين جميعاً، أياً تكن اهتماماتهم المهنية، وعقيدتهم السياسية، والتزامهم الطائفي، يصلون سريعاً إلى الحد الأدنى من إرضاء حاجاتهم، مما يتتيح لهم السير في حياة إنسانية حقيقة، وينجاوزون في أسرع وقت ممكن هذا الحد الأدنى".

ويضيف نقولا ناصيف أنّ "الافتقار إلى الإحصاءات والمعلومات كان في صلب المشكلات التي واجهها رئيس الجمهورية ومعاونوه الخبراء (من بعثة الأب لوبيريه)، وقد حمله هذا النقص على الطلب من رئيس غرفته العسكرية النقيب أحمد الحاج وضع خريطة بمرافق الخدمات في كل المناطق اللبنانية تشمل المستشفيات والمستوصفات والمدارس وشبكات المياه والكهرباء والهاتف. وعندما رُفعت الخارطة إلى الحائط في مكتبه، فوجئ رئيس الجمهورية بما أبرزته. إذ زُرعت دبابيس ذات رؤوس ملونة تشير إلى مراكز انتشار كلّ من قطاع الخدمات تلك في المحافظات، فإذا بمعظم الدبابيس تجتمع في بيروت وجبل لبنان، وتشكل فيما كرات ملونة، وافتقار الأطراف والبلدات النائية في الشمال والجنوب والبقاع إليها تماماً. ردّ الفعل الفوري لفؤاد شهاب كان: "معقول!! الآن تيقنت من السبب الذي دفع الدنادشة إلى حمل السلاح..."

بعد قراءة كتاب نقولا ناصيف، أصبحت من المعروف أكثر الظروف الدولية والإقليمية، وخصوصاً المحلية المتصلة بالطبقة السياسية التي لم تؤثر مصلحة الوطن على مصالح أفرادها الخاصة، متحصّنة بالتباهيات الطائفية والمذهبية...

وأصبحت من المعروف أكثر الأسباب التي أملت على الرئيس شهاب إعطاءه الأولوية للإصلاح الإداري والاجتماعي على الإصلاح السياسي، لنجد أنّ قانون الانتخابات النيابية الذي "فرضته" أحداث عام ١٩٥٨ "الأحداث العابرة والموقتة"، قد جاءت نتائجه "بالخيالية"، حيث ينقل الكاتب في الصفحة ٤٢٨:

"جعلت نتائج هذه الانتخابات آماله بإصلاح سياسي ودستوري بعيدة المنال.

إذ لن يجد الرئيس إلى جانبه طبقة سياسية شابة فاعلة تشجّعه، من داخل مجلس النواب، على خوض هذا الهدف بلا تردد وتحفظ، وتمضي به إلى نهاياته دونما الالتفات إلى المصالح الخاصة والمكاسب الانتخابية والسياسية".

وكم هو معتبر كتاب العزوف وما سبقه من حوار بين الرئيس شهاب والوزير فؤاد بطرس، وكم هو يختصر المعضلة اللبنانية بكل جوانبها... ولعل الجهد الذي بذله الوزير فؤاد بطرس من خلال ترؤسه "الهيئة الوطنية لوضع مشروع قانون الانتخابات النيابية"، يعبر عن إصرار فريق الرئيس شهاب في إقامة دولة للوطن اللبناني بدءاً بقانون الانتخاب الذي هو أصل شرعية سلطات الدولة. وهذا المشروع اصطدم بمصالح الطبقة إياها...

أيها السيدات والسادة،

نحناليوم، بعد مضي ثمانية عشر عاماً على إقرار الإصلاحات السياسية دستورياً، بحيث أصبح الميثاق الوطني مكتوباً وفي مقدمة الدستور، التي وصفها العالم الدستوري الراحل إدمون رباط بما يأتي:

"لقد حرصت وثيقة الطائف على استهلال القسم الأول من نصها، بإشارة أوّلاً إلى بيان "المبادئ العامة والإصلاحات" المتفق عليها، وقد أوردت، بعدد ١ ما وصفته بـ"المبادئ العامة". وهذه "المبادئ العامة" فقد اعتمدها المجلس النيابي اللبناني وجعلها "مقدمة" للدستور، بدون إدماجها في مواده، وذلك، على ما يبدو، لإضفاء صفة القدسية عليها، لأنّها في حقيقتها الموضوعية، إنّما هي بمثابة الإعلان الدستوري لما يستند إليه لبنان من الأركان الثابتة وما يؤمن به الشعب اللبناني من العقيدة القومية. وهي الخاصية التي تتضح صراحةً في كلّ بناء من بنود هذه "المقدمة" - الإعلان، الذي تتضمن كلّ كلمة منه على حلٍ لإشكالٍ نفسيٍ وسياسيٍ، طالما تسبّب، منذ تأسيس دولة لبنان الكبير، عام ١٩٢٠، بالمناظرات المتضاربة والعنيفة، بين القائلين أنَّ ثمة "قومية لبنانية" وبين العدد الضخم من أنصار "الأمة العربية"."

أيتها السيدات واللadies،

الدولة هي المؤسسات لا الأشخاص. وهي دولة الجميع لا دولة هذه الفئة دون تلك.

ولا شيء نسميه مؤسسات من دون أصولٍ نحتمل إليها، وإلاً احتملنا إلى موازين عشائرنا وقبائلنا وطوائفنا وذواتنا، وبعده خرابٌ علينا وذفناه. وفي كل مؤسسةٍ، وفي كل هيئةٍ قد صارت مؤسسة، إنما نحتاج إلى وضع الأصول. إذ كما ينقل نقولا ناصيف عن الرئيس شهاب قوله: "إن الاستقلال لن يعطي ثماره إلا يوم يتصل بروح العصر في مفهوم الدولة وواجباتها.. فالمسؤولية عن حياة الشعب والعدالة الاجتماعية وفكرة الغد والخطة والعلم، قواعد لا تقوم من دونها دولة ولا يسلم كيان".

ومن هنا أخالف من ردّ ويردّ بأننا في ظل "ديمقراطية توافقية"، لما يحمله هذا التعبير من معانٍ مغايرة تماماً، بل نحن في ظل "ديمقراطية ميثاقية" توصلنا بالتطبيق الصادق والأمين لميثاقنا الوطني، إلى "ديمقراطية برلمانية أصيلة صحيحة ومستقرة"، أكد عليها الرئيس اللواء فؤاد شهاب في وثيقته التاريخية "كتاب العزوف"، وأبرمها ميثاقنا الوطني في مقدمة الدستور، وصولاً إلى إقامة دولة الوطن، الدولة المدنية، وإعادة تكوين سلطاتها.

فالأوجب علينا، بالنسبة إلى عمل المؤسسات، أن نعمد إلى الحث على إيضاح الأصول وإثباتها، في ما هو صلاح النظام.

فإن كانت إرادتنا وطنيةً وعاقلةً ومتّسعةً لكافة فئات الوطن، اتصل الجهد بالجهد إلى غايةٍ هي الصالح العام. وجهد فؤاد شهاب لن يذهب هدرًا... والشعب اللبناني مؤهل لإكمال المسيرة.

أيها السيدات واللadies،

أشياء كثيرة قد تبدلّ وأشياء كثيرة كذلك قد ثبّتت. وبين ما قد ثبت وما قد تبدلّ وما قد ينهيًّا للظهور، فالالأظهر من بينها جميعاً هو بقاء الوطن.

ففي عالمٍ يعاد تكوينه، وفي منطقةٍ، خطورة موقعها، وتعقيد تاريخها،
ومجهول مصيرها، كلّها مجذبٌ للمخاطر، في هذا العالم، وفي هذه المنطقة، بقاء
الوطن ليس بالشيءِ القليل.

وإنّي أنتهز هذه المناسبة، ومن على هذا المنبر، لأنّوجه بالنداء إلى قلوب
اللبنانيين وعقولهم، رجالاً ونساءً، شباباً وشابات، مثقفين وعمّالاً، على الإسهام
والمشاركة في تكوين القوة السياسية والاجتماعية، للدفاع عن حقوقهم في حياةٍ كريمةٍ
تليق بعطائهم وتضحياتهم، وتأدية المهمة الوطنية التاريخية بإقامة الدولة المدنية
ذات النظام الديمقراطي السليم.

إنّ وطنكم يستحقُّ البقاء، وما زال في الإمكان إنقاذه من الضياع، ولا بديل
من هذا الوطن لكم وللعالم.

وشكري العميق لمؤسسة فؤاد شهاب، ولدار النهار، وللكاتب نقولا ناصيف،
ولكم جميعاً.

ونقتي بلبنان لا تزال لا تحدّ
عاش لبنان

حسين الحسيني